﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: 20]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تَـذْكِـيرٌ بِـأَصْـلِ النِّعَمِ ومَصْدَرِها والتَّـحْـذِيـرُ مِـنَ الكِبْرِ

لَمّا نَهى اللّهُ تَعالى عَنِ الكِبْرِ ومَظاهِرِه، وكانَ التَّكبُّر على النّاس والتَّعالي عليهم مِن آثارِ الفَضْلِ في النِّعَم؛ بيَّن اللّهُ سُبْحانَهُ أنَّ كُلَّ ما يُرى هو خلقُهُ؛ مُذَكِّرا بأنَّ النِّعَمَ إنَّما هي مِنْهُ سُبْحانَهُ، فَلا يَنْبَغي لأحَدٍ أن يَفْخَرَ بِما آتاهُ غيرُهُ، ومُحَذِّرًا مِن سَلْبِها عنِ المُتَكَبِّر وإعْطائِها للمُحْتقَرِ، فقالَ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَخَّرَ﴾: (سخر) تدلُّ اشتقاقاتُه على مَعْنَى الاحْتِقار والاستِذْلال[2]، ومِنْهُ قَوْلُهم: سَخِرْتُ مِنْهُ، أي: هَزِئْتُ به وتهكَّمْتُ[3]، وقولُهُم: سخَّر اللّهُ تَعالى الشَّيءَ؛ هو مِن هذا البابِ؛ لأنَّ مَعْنى تَسْخيرِ اللّهِ سُبْحانَهُ لَهُ أنَّه ذلَّلَه لأمْرِه وإرادَتِه[4]، ومِنْهُ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

2) ﴿وَأَسْبَغَ﴾: (سبغ) تدُلُّ اشْتِقاقاتُه عَلى تَمامِ الشَّيءِ وكَمالِه[5]، ومِنْهُ إسْباغُ الوُضوءِ؛ وهو أنْ يَأتيَ بالماءِ على كلِّ عُضْوٍ يَلْزَمُهُ غَسْلُه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 155.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(3) الخطابي، غريب الحديث: 2/ 289.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبغ).

مع إمْرارِ اليد، فهَو إنْ فَعَلَ ذلكَ وأكْمَلَهُ، فَقَد توضَّأ كما أمَرَهُ اللّهُ تَعالى[1]، وقولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ أي: أتَمَّها عليكُم وأكْمَلَها[2].

3) ﴿ظَٰهِرَةً﴾: (ظهر) تَدورُ تَصْريفاتُه عَلى بُروزٍ مِن أثناءٍ أو باطِنٍ إلى سَطْحٍ مَعَ شِدَّةٍ وغِلَظٍ أو قوَّة، ومنهُ: الظَّهْرُ مِنَ الأرض، والظَّهْرُ مِنَ الحَيوانِ والإنْسان، وكَظَواهِرِ الأوديَةِ والجِبالِ بالنِّسْبَةِ لِما دونَها[3]، وقولُ اللّهِ تَعالى: ﴿نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً﴾ أي: بارزةً، وهي ما يُدْرَكُ بالمُشاهدَة[4]، كالّتي تَكونُ في البدَن؛ مِنَ السَّمعِ والبَصَر ونَحْوِهما، ومنَ النِّعَمِ الظّاهرَةِ: المالُ والبَنونَ والجاهُ وغَيْرُها[5].

4) ﴿وَبَاطِنَةً﴾: (بطن) تَدُلُّ اشتقاقاتُه على جوفٍ داخِليٍّ للشَّيْءِ حيث يَخْفَى فيهِ ما يَدْخُل إليهِ، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى حكايَةً عَنِ امرأةِ عِمْرانَ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: 35]، وقولُ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ﴾ [النحل: 69]، ويقال: بَطَنَ الشيءُ؛ أي: خَفيَ، كأنَّه في بَطْن[6]، وقولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾؛ هي النِّعَمُ التي لا تُدْرَكُ بالمُشاهَدَة، وهيَ ما كانَت خَفيَّة في القُلوبِ اعْتِقادًا ومَعْرِفةً[7]، وكَراحَةِ البالِ والتَّوفيق لِلرَّشَدِ في الفِكْرِ والتَّصرُّف[8].

5) ﴿يُجَٰدِلُ﴾: (جدل) تَدُلُّ تَصْريفاتُه عَلى اسْتِحْكامِ شَيْءٍ في اسْترْسالٍ يكونُ فيهِ، وعَلى امْتِدادِ الخُصومَةِ ومُراجعَةِ الكَلام[9]، ومَعْناهُ الجامِعُ أنَّه: امْتِدادُ الشَّيْءِ الشَّديدِ الأثناءِ بالتِفافِ بَعْضِه عَلى بَعْضٍ أوِ التِفافِ مِثْلِه عليه، كما في الحَبْل، ومنهُ قَوْلُهُم: جَدَلَهُ؛ أي: صَرَعَهُ، ففَتَلَهَ ولَواهُ فامْتَدَّ عَلى الأرض، ومِنْهُ المُجادَلَةُ: وهيَ المُخاصمَةُ في شِدَّةٍ ولَدَدٍ؛ لأنَّ المُجادَلَة فيها التِفافُ كُلٍّ عَلى الآخَر بِإصْرارٍ[10]، والمُجادلَةُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ

(1) ابن العربي، المسالك في شرح موطأ مالك: 3/ 132.
(2) ابن عبد البر، الاستذكار: 2/ 302.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظهر).
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 418.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظهر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بطن).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 149.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بطن).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدل).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جدل).

ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هي شِدَّةُ الخُصومَةِ واسْتِمْرارُ مُراجعَةِ الكَلامِ[1].

7) ﴿مُّنِيرٍ﴾: (نور) تدُلُّ اشتقاقاتُه عَلى الإضاءةِ والاضْطِرابِ وقلَّةِ الثَّبات، ومِنْهُ النّورُ والنّارُ، وقد سُمّيا بذلكَ مِن طريقَةِ الإضاءَة؛ لأنَّ ذلك يكونُ مُضْطَرِبًا سَريعَ الحركَةِ[2]، وحقيقَةُ النّور: الضَّوْءُ المُنْتَشِرُ الذي يُعينُ عَلى الإبصارِ، وهو ضَرْبان: دُنْيَويٌّ وأُخْرَويٌّ، فالدُّنْيَويُّ؛ مِنْهُ ما هو معقولٌ بِعَيْنِ البَصيرَة، وهو ما انْتَشَر مِنَ الأُمورِ الإلهيَّة كَنورِ العَقل ونورِ القرآن، ومنهُ ما هو محسوسٌ بعَيْنِ البَصر، وهو ما انْتَشَر مِنَ الأجْسامِ النَّيِّرَةِ كالقَمَرَيْنِ والنُّجوم والنَّيِّرات، ومنهُ قولُ اللّهِ سُبْحانَه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: 61]، ومِنَ النّورِ الأُخْرَويِّ قولُ اللّه تَعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الحديد: 12][3]، ومَعْنى قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾: ولا وحْيٍ نَيِّرٍ واضِحٍ يَعْلَمُ بِهِ ما يُجادِلُ بِهِ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تَسْخيرُ المَخْلوقاتِ وتَعْدادُ النِّعَمِ ودَعْوَةٌ لِلتَّوْحيدِ

أَلَم تَرَوْا - أيُّها النّاس - أنَّ اللّه ﷻ قد ذلَّل لَكُم ما في السَّماواتِ مِن شَمْسٍ وقمَرٍ ونَجْمٍ وسَحابٍ وغيرِ ذلكَ، وما في الأرْضِ مِن دابَّةٍ وشجَرٍ وماءٍ وبَحْرٍ، وغيرِ ذلكَ مِمّا لا يُحْصى، وعمَّكُم بِنِعَمِه الظّاهِرَةِ على الأبْدانِ والجَوارح، والباطِنَةِ في العُقول والقُلوب، وما ادَّخره لَكُم مِمّا لا تَعْلَمونَهُ، ومِنَ النّاس مَن يُجادِلُ في توحيدِ اللّه تَعالى وإخْلاصِ العِبادَةِ لَهُ بغَيْرِ حُجَّة ولا بيانٍ، ولا كتابٍ مُبينٍ يبيِّنُ حقيقةَ دَعْواهُ[5].

(1) محمد محمّد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 178.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نور).
(3) الراغب، المفردات: (نور).
(4) الشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 280.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 147 - 149، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 413.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

تَسْخيرُ اللهِ الكَوْنَ لِلإنْسانِ اسْتِدْلالٌ إلهيٌّ وامْتِنانٌ

فُصِلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عَمّا قَبْلَه؛ لِكَوْنِه اسْتِئْنافًا ابْتِدائيًّا، وهو رُجوعٌ إلى ما تَقَدَّم في أوائِلِ السّورَةِ في قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: 10]، وذلك أنَّهُ بَعْدَ الاسْتِدلالِ بِخَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ والحَيوانِ والأمْطارِ؛ رجَعَ هَهُنا الاسْتدلالُ والامْتِنانُ بتَسْخيرِ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ لَنا[1]، ولو وقعَ مَعطوفًا لأوهمَ أنَّه من كلامِ لُقمانَ الَّذي يوصي ابنَهُ.

بَلاغَةُ الاسْتِفْهامِ ونَوْعُهُ وغَرَضُهُ:

دَعْوَةٌ لِلتَّفَكُّرِ في آياتِ التَّسْخيرِ الإلَهيِّ

الهَمْزَةُ في ﴿أَلَمْ﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للاسْتِفْهامِ التّصديقيّ، والاسْتِفْهامُ خارِجٌ عن أصلِ دِلالَتِه من إرادَةِ طلَبِ العِلْمِ بِشَيْءٍ لَم يَكُنْ معلومًا من قبلُ، والمُرادُ به التَّقريرُ، والمَعْنى: قَد رَأَيْتُم ذَلِكَ وعَلِمْتُموهُ، ففيه إلجاءٌ إلى الاعترافِ بمضمونِ الكلامِ المُثْبَتِ وهي الرّؤيةُ، ودعوةٌ للتّفكُّرِ عندَ الإقرارِ بمُحتواهُ ومَعناه، أو المُرادُ الإنْكارُ عليهم لِعَدَمِ رُؤْيَتِهم؛ بِتَنْزيلِهم مَنْزِلَةَ مَن لَم يَرَوْا آثارَ ذلكَ التَّسخير، وذلكَ لِعَدَمِ انْتِفاعِهم بها في إثْباتِ وحْدانيَّةِ اللهِ تَعالى في أُلوهيَّتِه[2]، فيكونُ الإنكارُ للنَّفي توبيخيًّا يُلقي باللّائمةِ عليهم، ويُعطي دلالةَ عدمِ الانبغاءِ لتلك الغَفلةِ عنِ النّعمِ العظيمةِ المُحيطةِ بهم.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ﴿تَرَوْا﴾ مادَّةً وصيغَةً:

شِدَّةُ عِنادِهِمْ وإعْراضِهِمْ عَنِ الحَقِّ

فِعْلُ الرُّؤية في قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بمَعْنى العِلْمِ، أي: أَلَمْ تَعْلَموا، إلّا أنَّ فعلَ الرُّؤيةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 173.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 174.

الواردَ بمَعْنى العِلْم أقْوى في الدِّلالَة؛ إذْ مَعْناهُ: ألَمْ تَعْلَموا عِلْمًا هو في الظُّهور كالمُشاهَد؟![1] وهذا أبلَغُ في الإنْكار عليهم؛ إذْ عَمُوا عَن هَذا العِلْم الشَّديد الظُّهور، البيِّنة آثارُهُ أعظَمَ البيانِ وأوضحَهُ، وهذا يَقْتَضي عِظمَ عِنادِهم وشِدَّةَ إعْراضِهم عنِ الحَقِّ، فيكونُ في ﴿تَرَوْاْ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ؛ إذ شبَّه العلْمَ بالرُّؤية بجامعِ الانكشافِ في كلٍّ، ثمَّ استعارَ الرُّؤيةَ للدِّلالة على المُبالغة في عدمِ الانتفاع بالنِّعَم ودلالاتِها الظّاهرةِ على المُنعِم.

وجاءَ الفعْلُ بصيغَةِ الفعْلِ المُضارِعِ المَنْفيِّ الدّالِّ على الماضي؛ للإشْعارِ بأنَّهُم مُسْتَمِرّون في هذا الإعْراضِ إلى زمنِ الحالِ بمَعونةِ المَقام، دائمونَ على هَذا العَمى عَنِ الحقِّ؛ إذِ المَقْصودُ بالفعْلِ المُضارِعِ المَنْفيِّ: استمرارُ النَّفْي لا نَفْيُ الاسْتِمْرار؛ لأنَّه لَم يَحْصُلْ لَهُمْ انتفاعٌ أصلًا بِما يَقودُهُم إلى الإقْرارِ بانْفِراد اللهِ سُبْحانَهُ بالأُلوهيَّة، وجاء الفعلُ بدلالةِ الزّمنِ الماضي لإفادةِ تحقُّقِ وقوعِ عدمِ الانتفاع بالرُّؤيةِ؛ لزيادةِ التّوبيخ وشدَّةِ الإنكار.

الرُّؤْيَةُ بَيْنَ البَصَريَّةِ والقَلْبيَّة:

رُؤْيَـةُ التَّسْخيرِ رُؤْيَـــةٌ لِآثَـــارِهِ وأدِلَّتِهِ

الرُّؤيةُ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بصريَّةٌ، ويكونُ رُؤْيَةُ التَّسْخيرِ المَذْكورِ مُرادًا به رؤيةُ آثارِهِ وأدِلَّتِه، وذلك أنَّ البصرَ لا يُدرِكُ ثبوتَ التّسخيرِ للهِ تعالى؛ لأنَّ ثبوتَهُ أمرٌ معنويٌّ يُتعقَّلُ ولا يُرى.

وجائزٌ أن تَكونَ الرُّؤْيَةُ عِلْميَّةً قَلْبيَّة، ورُؤْيَةُ التَّسْخيرِ – على هذا – كَسابِقِه؛ يُرادُ به عِلْمُ آثارِ ذَلِكَ التَّسخيرِ وأدِلَّتِه[2]، ولا مانعَ من أنْ يكونَ العِلْمُ مُتعلِّقًا بثبوتِ التّسخيرِ للهِ تعالى؛ إذْ مَن نظرَ إلى المخلوقاتِ وربطَها بوجودِ الإنسانِ وحياتِهِ حكمَ بأنَّها مُسخّرةٌ منَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 184.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 174.

اللّه تعالى لخدمتِهِ، فيتعلَّقُ علمُهُ بالتّسخيرِ المحكومِ به للّه تعالى كما يتعلَّقُ بآثارِهِ وأدلّتِهِ، ولذا كانتِ استعارةُ الرُّؤيةِ للعلْمِ راجحةً على الرُّؤيةِ البصريَّة.

المُخاطَبُ في ﴿تَرَوْاْ﴾:

عُـمـومُ امْـتِـنـانِ اللهِ تَعالى عَلى العِبادِ

الخطابُ في ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يَجوزُ أن يكونَ لِعُمومِ النّاسِ؛ مُؤْمِنِهم وكافِرِهِم، وذَلِكَ لأنَّ المَذْكورَ في الآيَةِ امْتِنانٌ مِنَ اللّه تَعالى عَلى عِبادِه، وهَذِهِ المِنَّةُ تَعُمُّ النّاسَ جميعَهم، فيكونُ الضّميرُ مُستعمَلًا في معناهُ المجازيِّ المُرادِ به الشُّمولُ الاستغراقيُّ، وذلك أوضحُ في الحُجّة وأقوى في الاستدلال والامتنان؛ إذ يُصبحُ كلُّ مَن تتأتَّى منه الرُّؤيةُ والعلمُ قادرًا على إدراكِ ذلك الثّبوتِ التّسخيريِّ للمخلوقاتِ منَ اللّه تعالى.

ويجوزُ أن يكونَ الخِطابُ لِخُصوصِ المُشْرِكينَ؛ لأنَّ المَذْكورَ وإنْ كانَ امْتِنانًا عامًّا إلّا أنَّه نُظِرَ إلَيْهِ باعْتِبار أنَّه استدلالٌ بالرُّبوبيَّة عَلى اسْتِحْقاقِ اللّهِ تَعالى للعِبادَةِ وحْدَهُ[1].

فائِدَةُ التَّوْكيدِ في الآيَةِ:

تَـقْـويَـةُ المَعْنى وإزالَةُ الإنْكارِ

في التَّعبير بـ ﴿أَنَّ﴾ المُؤَكِّدةِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تقويَةٌ لِمَضْمونِ الجُمْلَةِ، اهتمامًا بِهِ في جانِبِ المُؤْمِنينَ، وإزالَةً لِلتّردُّد في جانِبِ الكافِرينَ، كما أفادَ التّوكيدُ للجملةِ تقويةَ الإنكارِ التّوبيخيِّ، فهم يُنكرونَ أمرًا محقَّقًا لا سبيلَ للشّكِّ والتّردُّدِ فيه، ويكونُ المعنى: ألم تعلموا هذا الأمرَ المحقَّقَ الثّابتَ المتقرِّرَ؟.

دلالةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه:

تَـسْـخـيرُ المَخْلوقاتِ لا يَكونُ إلّا للّه تعالى وحده

آثرَ النّظمُ القرآنيُّ التّعبيرَ عنِ الأمرِ المُنكَرِ عليهم عدمُ رؤيتِهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 174.

له بالجملةِ الاسميَّة الدّالّةِ على الثّبوت، والّتي تقتضي تقديمَ المُسنَد إليه؛ لأنّهم كانوا يُنكرونَ اختصاصَ ذلك التّسخيرِ باللّه تعالى وحدَهُ، ويُشركونَ معَهُ آلهةً لا تضرُّ ولا تنفع، فكانَ تقديمُ المُسنَدِ إليه في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ دالًّا على الاختصاصِ معَ تقويةِ الحُكم؛ لبيانِ فضاعةِ إنكارِهم لذلك الأمرِ المحقَّق.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ﴿سَخَّرَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

الإشـــارَةُ إلى سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ سُبْحانَهُ وعُمومِ إحْسانِهِ

في التَّعبير بالتَّسخيرِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مُبالغَةٌ في الامْتِنانِ؛ لأنَّ التَّسخيرَ يَقْتضي أنَّ الأمرَ المُسَخَّر في غايةِ السُّهولةِ والتَّيسير؛ إذ حقيقَةُ التَّسْخيرِ تدُلُّ على التَّذليل، وفي هذا الفعلِ تصويرٌ لكمالِ العظمةِ الإلهيَّة التي جعلتْ كلَّ المخلوقاتِ المُحيطةِ بالإنسانِ خادمةً له، يأمرُها فتُطيعُ وتَنقادُ، ويدلُّ ذلك التّركيبُ بالكناية عن بُطلان اتّخاذِ ما في السَّماوات والأرضِ شريكًا للّه تعالى؛ لأنَّ كلَّ تلك المخلوقاتِ خادمةٌ للإنسان؛ فما بالُه يخضعُ لها ويطيعُها من دون اللّه؟ مع أنَّها المأمورةُ بالطّاعةِ والانقيادِ له.

ولفظُ التَّسْخيرِ أيضًا يومِئُ إلى الانْتفاعِ بِكُلِّ هذهِ الأشْياءِ دونَ مُقابلٍ مِنْهُم، وهَذا يَدُلُّ على سعَةِ رَحْمَةِ اللّهِ تَعالى وعُمومِ إحْسانِهِ إلى عِبادِه[1].

وفي التَّعبير عنِ التَّسخير بالفعلِ الماضي ﴿سَخَّرَ﴾ زيادةٌ في تأكيدِ المَعْنى وتَرْسيخِه، وأنَّ التَّسْخير المَذْكورَ واقِعٌ مُحَقَّق، واختارَ النّظمُ صيغةً تدلُّ على المبالغةِ والتّكثير في الفعلِ المُستلزمِ كثرةً في المسخَّرات، لبيانِ عظيمِ فعلِ اللّه بعبادِهِ وإحسانِهِ إليهم.

(1) أحمد علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 375.

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾:

النّظامُ البيئيُّ خادمٌ للإنسان

عبَّر النّظمُ الكريمُ عن الأمرِ للمخلوقاتِ بخدمةِ الإنسان لغرضِ بقاءِ نوعِهِ واستمرارِ حياتِهِ بـ(التّسخير) في قوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على سبيلِ الاستعارة التّصريحيَّة التّبعيَّة؛ إذ شبّه الأمرَ لها بخدمةِ الإنسان، وخلقَها وفْقَ نظامٍ وناموسٍ محدَّدٍ بالمذلَّل لغايةٍ معلومة، والغرضُ بيانُ عظيمِ قدرةِ اللّه تعالى على مخلوقاتِه، وأنَّ كلَّ مخلوقٍ خادمٌ للإنسان فلا يستحقُّ أنْ يُعبَدَ، وأنَّ الإنسان سيِّدُ الموجودات، فعليهِ أنْ يُحسِنَ الأدبَ مع اللّه الخالقِ المسخِّرِ الآمرِ للمخلوقاتِ بالانقيادِ للإنسان، ولا يبعدُ أيضًا أن تكونَ الاستعارةُ مكنيّةً، بتشبيه ما في السّموات وما في الأرض من مخلوقاتٍ بـ(الحيوانات)، ثمَّ حذفَها وأبقى من خواصِّها ولوازمِها التّسخيرَ والتّذليلَ، والغرضُ منها إضفاءُ الحياة على المخلوقات الجرميَّةِ المُحيطةِ بالإنسان، وأنَّها تنقادُ أمرًا منَ اللّه لخدمةِ الإنسان كما تنقادُ الحيواناتُ المسخّرةُ للعمَل.

مَعْنى اللّامِ في ﴿لَكُم﴾:

تَسخيرُ المَنافِعِ لِلعِبادِ

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للتَّعليلِ، أي: سخَّر ذلك لأجْلِكُم ولنَفْعِكم، وذلك لأنَّ من جُمْلَةِ المُسَخَّر: ما هو منافِعُ لَنا من أمطارٍ ورياحٍ ونورِ الشَّمس والقمَر، ومنازلِ القمَر ونَحْوِها[1]، فهو تعالى وإنْ خلقَها لا لعلّةٍ لتنزُّهِه تعالى عنِ العِلَلِ والأغراض في أفعالِه الجليلة، لكنْ لمّا كانتْ تلك المخلوقاتُ لنفعِكم ومَصلحتِكم فكانت كأنَّها علّةٌ، ففي (اللّام) استعارةٌ تبعيّةٌ بتشبيهِ العاقبةِ بالعلَّة وجعلِ ما ليس علّةً كالعلَّة.

نُكْتَةُ تَقْديمِ شِبْهِ الجُمْلَةِ ﴿لَكُم﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُم﴾ الواقعُ حالًا منَ المفعولِ به

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 174.

المُسخَّر، وذلك في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وكان مُقْتَضى الظّاهِر أن يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (سَخَّر ما في السَّماوات وما في الأرضِ لَكُمْ)، وهذا التَّقديمُ يُرادُ بهِ الاهْتِمامُ والعِنايَةُ بالمُقدَّم وهُمُ المُخاطَبونَ؛ ليكونَ ذَلِكَ أدْعى لَهُمْ لاسْتِشْعارِ عَظيم نِعَمِ اللهِ تَعالى عليهم، فيَسْتَدِلّوا بِها على اسْتِحْقاقِ اللهِ سُبْحانَهُ للأُلوهيَّة وحْدَهُ، وفي تخصيصِ تسخيرِ ما في السّمواتِ والأرضِ بِنا لا بغيرنا دعوةٌ إلى التّأمُّلِ في عظيمِ المنَّة، فهل يليقُ بمَن خصَّنا بذلك أنْ نُشركَ به مُسخَّرًا مِن مُسخَّراته، ونجعلَه إلهًا يُعبَدُ.

حَمْلُ المُخاطَبينَ عَلى اسْتِشْعارِ عَظيمِ نِعْمَةِ اللهِ تَعالى عليهمْ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمَوْصولِ وصِلَتِهِ:

﴿مَّا﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ اسمٌ موصولٌ بمَعْنى الَّذي، وعُبِّر بالمَوْصولِ وصِلَتِه دونَ التَّنصيص على أفْرادِ المُسَخَّرات؛ لعدمِ الفائدةِ من ذِكْرِ الأفْرادِ؛ وللدِّلالة على عَدَمِ تَناهيها، حتى إنَّ الإنسانَ أينَما التفتَ فإنّه يجدُ تلك المُسخَّراتِ مُحيطةً به، تخدمُهُ وهي طوعُ أمرِهِ وقُدرتِه، فكانَ التَّعبيرُ بالمَوْصولِ وصِلَتِه دالًّا على الإحاطَةِ والعُمومِ مَع الاخْتِصارِ والإيجازِ، وفي الإبهامِ للمُسخَّرات إشارةٌ إلى تنوُّعِها حتّى تكونَ ممّا يُدرِكُه الإنسانُ ويقفُ على حقيقتِهِ، أو لا يُدرِكُهُ ولا يقفُ على أسرارِه العجيبةِ، وإرادةُ الإبهامِ تتناسبُ مع إرادةِ الإحاطةِ المنظورِ إليها في ذكرِ جميعِ أرجاءِ (السَّماوات والأرض)؛ لإيضاحِ صورةِ الشُّمولِ والاستغراقِ لكلِّ النِّظامِ الكونيِّ الفسيحِ.

تَعَدُّدُ نِعَمِ اللهِ تَعالى على العِبادِ وعَدَمُ تَناهيها

دِلالَةُ الظَّرْفيَّةِ في قولِه: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

﴿فِي﴾ مِن قولِ اللهِ سُبْحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حرفٌ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وما في الظَّرف قَد يَخْفى علْمُهُ والانتفاعُ به، فبَيَّنَ اللهُ تَعالى امْتِنانَهُ على العبادِ بِما

امْتِنانُ اللهِ سُبْحانَهُ عَلى العِبادِ

في السَّماوات وما في الأرضِ؛ تنبيهًا على ما هوَ أظهَرُ مِنْ ذَلِكَ مِمّا هو على الأرْضِ.

ويجوزُ أن تكونَ ﴿فِي﴾ الدّاخِلَةُ على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ مُسْتَعمَلَةً في مَعْنَى الاستعلاء مبالغةً؛ لأنَّ ما على الأرضِ شديدُ الصِّلة بها حتّى كأنَّهُ فيها، والَّذي يترجّحُ لدينا أنَّ ﴿فِي﴾ في الموضعينِ مجازٌ استعاريٌّ عنِ الاستعلاء؛ بتشبيهِ ما فوقَها بالدّاخلِ فيها من كثرتِهِ وانتشارِهِ وتمكُّنِه وإحاطتِهِ، ولعلّ النَّظمَ آثرَ التّعبيرَ بحرفِ الظّرفيَّة؛ للدّلالة على غموضِ ذلك التّسخيرِ حتَّى كأنَّه في الشّيءِ لا ظاهرٌ فوقَه، فيحتاجُ إلى تأمّلٍ لمعرفةِ آثارِهِ وأحوالِهِ.

دلالةُ الوصلِ في الآية:

عطفَ النّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ على قوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لتوافُقِهما خبرًا لفظًا ومعنىً؛ ولبيان أنَّه لا يكفي تسخيرُ ما حولَ الإنسانِ لخدمتِه، وتطويعُ المخلوقاتِ من أجلِ بُنيانه ووجودِهِ وحَياتِه، من دونِ إسباغِ النِّعَم عليه بالعقلِ والوَحْي والهداية والرَّشاد، فيكونُ ذكرُ التّسخيرِ مقصورًا على النّعَم التي يَحتاجُها لبقاءِ النّوع الإنسانيِّ واستمرارِه، وذكرُ الإسباغ للنِّعم دونَ ذكرِ مُجرَّدِ النِّعَم لبيانِ خلقِ العقل والقُوى الفكريّة فيه لفهمِ الوحي والرِّسالة والعملِ بموجبهما.

لا كمالَ في التّسخير من دونِ إتمامِ النِّعَم

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿وَأَسْبَغَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

في التَّعبيرِ بفعلِ الإسْباغِ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ دِلالَةٌ عَلى سَعَة إنْعامِ اللهِ سُبْحانَهُ عَلى عِبادِه، وإتْمامِه نِعْمتَهُ عليْهِم، بحيثُ زادَتِ النِّعَمُ عَلى قَدْرِ حاجَتِهِم[1]، وفي ذكرِ الإسْباغِ بالفِعْلِ الماضي ﴿وَأَسْبَغَ﴾؛ تَحْقيقٌ لِهَذا المَعْنى وتأكيدٌ

سَعَةُ إنْعامِ اللهِ سُبْحانَهُ على العِبادِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 184.

لَهُ، وجاءتْ صيغةُ (أفعلَ) هنا للدِّلالة على تعديةِ الفعل إلى النّعَم بإكمالِها وإتمامِها، وإنَّما اختارَ النّظمُ الكريمُ صيغةَ (فعَّل) مع التّسخير وصيغةَ (أفعلَ) معَ النِّعَم؛ لأنَّ الجماداتِ الجُرميّةَ المُحيطةَ عظيمةُ البناء ولا تَعي ولا تَعقِلُ؛ لأنَّها متعلِّقةٌ بالنِّظام البيئيِّ المُحيطِ بالإنسان، فناسبَ ذكرُ صيغةِ المبالغة معَها، فتكونُ مُسخَّرةً وفقَ نظامٍ ونواميسَ مُحدَّدةٍ كالحركةِ الفلكيَّة التي ينجمُ عنها اللَّيلُ والنّهارُ والفصولُ الأربعة مثلًا، وأمّا النِّعَم فهي لطيفةٌ ودقيقةٌ، فناسبَ معَها ذكرُ صيغةِ (أفعلَ)، كما أنَّها تتفاوتُ كَمالًا وتمامًا، كنعمةِ الوجود والحياة، التي لا توصفُ بالسّبوغ والكمال من دون نِعَم العقلِ والحِكمة والإرسالِ والهداية.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في التَّعْبيرِ بِالإسْباغِ:

إسْباغُ النِّعَمِ دِلالَةٌ عَلى كَثْرَتِها وشُموليَّتِها

المُراد بإسْباغِ النِّعَم في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ هو إكْثارُها وتَعْميمُها وتَكْميلُها، وأصْلُ الإسْباغ: جَعْلُ ما يُلْبَسُ سابغًا، أي: وافيًا في السَّتْرِ، ومنهُ قَوْلُهُم: دِرْعٌ سابغةٌ، وهو في الآية الكريمَةِ مُسْتَعْمَلٌ على جِهَةِ الاستعارَةِ؛ إذْ شُبِّه إكثارُ النِّعَم وتَعْميمُها بالإسْباغِ بِجامِعِ الكَثْرَة؛ لأنَّ الشَّيء السّابِغَ كثيرٌ فيه ما يُتَّخَذ من سَرْدٍ أو شُقَقِ أثوابٍ[1]، واشْتُقَّ مِنَ الإسْباغِ بِالمَعْنى المُتَقدِّم الفعلُ: أسْبَغَ؛ وذلك على جِهَةِ الاسْتِعارَةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وفي ذلك تصويرٌ بديعٌ لعُمومِ النِّعَم وكِفايَتِها الخَلْقَ، ولا يبعُدُ أنْ تكونَ الاستعارةُ في النّظم مكنيّةً، من خلال تشبيهِ النِّعَم الظّاهرة والباطنةِ بالثّوبِ الَّذي يلتفُّ به الإنسان، ويُحيطُ به من جميعِ جوانبِه، ثمَّ حذفَهُ وأبقى من خواصِّه ولوازمِهِ الإسباغَ؛ لبيان أنَّ النِّعَم الإلهيّةَ تُحيطُ بالإنسان من جميعِ جوانبه، فتكونُ الكثرةُ مع الإحاطةِ حاصلينِ على هذا التّوجيهِ الاستعاريِّ، ولذا يكون راجحًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 174.

على الاستعارةِ التّصريحيَّة، كما يتحقّقُ التّخييلُ في جعل الإسباغِ مُسندًا للنّعم المعنويّة، وكأنَّها جلّلَتْه وغطّتْهُ حتى لا يكادَ يُرى من أثرِ ذلك اللَّفِّ وتلك الإحاطةِ.

نُكْتَةُ تَعْدِيَةِ الإسْباغِ بِحَرْفِ الاسْتِعْلاءِ:

التّأكيدُ على عُمومِ النِّعَمِ وتَمَكُّنِها

تَعْدِيَةُ فِعْلِ الإسْباغِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ بحَرْفِ الجَرِّ (عَلى) الدّالِّ على الاسْتِعْلاءِ تَأكيدٌ لمَعْنى تَعْميمِ النِّعَمِ وتَمَكُّنِها في حياةِ العِبادِ، بقي أنَّ هنالك انسجامًا حرفيًّا بينَ ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ و﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾؛ إذِ الحرفُ الأوّلُ دالٌّ على التّعليلِ، والغرضُ اللّازمُ منه التّملّكُ والانتهاء، والحرفُ الثّاني دالٌّ على الاستعلاءِ والإحاطة؛ وكلٌّ منهما متناسِبٌ مع سياقِه؛ إذِ النّظامُ الكونيُّ لوجودِ المخاطبينَ وبقائِهم فاستعملَ (لام التّعليل)، وهذا يتناسبُ مع جميعِ المخلوقات مُؤمنِها وكافرِها؛ لأنَّ ذلك المُسخَّر مهمٌّ لبقاءِ النّوعِ الإنسانيِّ، والنّعَمُ المحيطةُ بالإنسان لبيانِ إحاطتها به إحاطةً تامّةً، فاستعملَ (على)، وللدّلالة على أنَّ نعمةَ الهدايةِ من أجلِّ النِّعَم فاقتصر بها على المُؤمنِ، وعدّاها بـ(على)؛ لأنَّها تشتملُ على صاحبِها اشتمالَ المُتمكِّنِ المُستعلي.

غَرَضُ تَقْديمِ شِبهِ الجملة:

حَمْلُ المُخاطَبينَ على اسْتِشْعارِ عَظيمِ نِعْمَةِ اللّهِ تَعالى عليهِمْ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ الواقعُ حالًا من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾، وكان مُقْتَضى الظّاهِر أن يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (وأسبغَ نِعَمَهُ عليكُمْ)، وهذا التَّقديم يُرادُ به الاهْتِمامُ والعِنايَةُ بالمقدَّم وهُمُ المُخاطَبونَ؛ ليكونَ ذَلِكَ أدْعى لَهُمْ لاسْتِشْعارِ عَظيمِ نِعَمِ اللّهِ تَعالى عليهم، كما أنَّ فيه قصرَ النِّعَمِ السّابغةِ على النّوعِ الإنسانيِّ دونَ بقيّةِ الأنواع؛ لكمالِ عقلِه وتشريفِه بالخطابِ الإلهيِّ، واختيارِ الرُّسُلِ من جنسِه.

تَوْجيهُ القِراءاتِ في ﴿نِعَمَهُۥ﴾:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ لِلقِراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قرأ نافِعٌ وأبو عَمْرٍو وحفصٌ وأبو جَعْفَر ﴿نِعَمَهُۥ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ بالتَّذكير والجَمْعِ، وقرأ الباقونَ (نِعْمَةً) بالتَّأنيث والإفْراد[1].

فالأوَّلُ - وهو ﴿نِعَمَهُۥ﴾ - جمعُ: نِعْمَةٍ، كسِدْرةٍ، تُجْمَعُ على: سِدَرٍ، والهاءُ في محلّ جرٍّ مضافٌ إليه، والضَّمير راجعٌ إلى اللّه سبحانَهُ، وهذه الصّيغةُ ﴿نِعَمَهُۥ﴾ دالّةٌ على العموم؛ لأنَّه جمعٌ مضافٌ، وفي الإضافَةِ إلى الضَّمير العائدِ إلى اللّهِ تَعالى إيماءٌ إلى عظمَةِ هذِهِ النِّعْمَةِ وجَلالَتِها[2].

وأمّا الآخَرُ - وهو (نِعْمَةً) -؛ فهو مصدرٌ أُريدَ بِهِ اسْمُ الجنسِ[3]، أو أنَّه لفظٌ مفردٌ منكَّر واقِعٌ في سياقِ الامْتِنانِ، فيدُلُّ على العُمومِ أيضًا، والغرضُ من إلحاقِ (تاء الوحدة) به الدّلالةُ على أنَّ هذا الجنسَ إنَّما يتحقّقُ في مفردٍ مُتّصفٍ بالعمومِ مَفهومًا وبالوحدةِ تحقُّقًا؛ إظهارًا لكمالِ كلِّ نعمةٍ من تلك النِّعَمِ العظيمةِ.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ (نِعْمَةً):

تَعْظيمُ نِعَمِ اللّهِ تَعالى وتَفْخيمُها

نُكِّرت لفظةُ ﴿نِعْمَةً﴾ في قراءَةِ الجُمْهورِ لقَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾؛ وذلك لإرادَةِ التَّعظيمِ والتَّفخيمِ[4]، فهيَ نِعْمَةٌ عظيمةُ القَدْرِ جليلَةُ المَنْزِلَةِ؛ لأنَّ الَّذي أفاضَها عَلى العِباد هو رَبُّهُم ﷻ.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾:

أثَرُ الإعْرابِ في كَشْفِ دَقائِقِ المَعاني

﴿ظَٰهِرَةً﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ منصوبةٌ على الحالِ، و﴿وَبَاطِنَةً﴾ معطوفةٌ عَلَيْها، والمَعْنى:

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 347.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 174.
(3) محمد سالم محيسن، المغني في توجيه القراءات العشر: 3/ 141.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 185، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 174.

أسبَغَ عَلَيْكُم نِعَمَهُ حالَ كونِها ظاهِرةً وباطنةً، ومنَ المعلوم أنَّ الحالَ يُبيِّنُ هيئةَ صاحبِهِ ويُقيِّدُ عاملَه، فيكونُ المعنى: أنَّ النِّعَمَ في حالةِ الظُّهور وعدمِه قد أسبغَها عليكم، كما يدلُّ الحال على الاشتراط؛ لأنَّه مقيِّدٌ للعامل، أي: إنَّ الإسباغَ عليكم بالنِّعَم في تينك الحالتين، وبما أنَّهما حالتانِ شاملتانِ فيكونُ الإسباغُ مطلقًا وكاملًا.

وأمّا على قِراءَةِ الجُمْهورِ (نِعْمَةً)، فتكونُ ﴿ظَٰهِرَةً﴾ مُنْتَصِبَةً على أنَّها صِفَةٌ لِـ (نِعْمَةً)، و﴿وَبَاطِنَةً﴾ مَعْطوفةٌ عَلَيْها[1]، ومنَ المعلوم أنَّ النَّعتَ الجاريَ على النّكرةِ مفيدٌ للتّخصيص، لكنَّه لمّا وصف النِّعَمَ بالظّهور وعدمِه فإنَّها تكونُ شاملةً لكلِّ النِّعَم جليِّها وخفيِّها.

نُكْتَةُ تَقْديمِ ﴿ظَٰهِرَةً﴾:

قُدِّم وصفُ الظُّهور في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾؛ لأنَّ النِّعَمَ الظّاهرَةَ أبْيَنُ في المِنَّة وأوضَحُ مِنَ النِّعَم الباطنةِ، فكان التَّذكيرُ بها أحْضَرَ لَها في الذِّهن، ثُمَّ انتُقِلَ بَعْدُ إلى التَّذكير بالنِّعم الخفيَّة، ونلحظُ بينَ تقديم ﴿ظَٰهِرَةً﴾ على ﴿وَبَاطِنَةً﴾ هنا، وتقديم ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيما تقدّمَ مقابلةً خفيّةً؛ إذ قدّمَ الخفيّ على الظّاهر سابقًا، وقدَّمَ الجليَّ على الخفيّ هنا، والغرضُ من ذلك أنَّ تلك النِّعَمَ لا تعدُّ ولا تُحصى من أيِّهما ابتدأتَ وإلى أيِّهما انتهيتَ.

النِّعَمُ الظّاهِرَةُ أبْيَنُ في الِامْتِنانِ مِنَ النِّعَمِ الباطِنَةِ

بَلاغَةُ الطِّباقِ في قَوْلِهِ: ﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾:

بَيْنَ ﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ طباقُ إيجابٍ، وذلك لِتَأكيدِ العُمومِ المُسْتَفادِ مِنَ الإضافَةِ في ﴿نِعَمَهُۥ﴾؛ إذِ النِّعَمُ لا تَخْلو إمّا أن تَكونَ ظاهِرَةً وإمّا أن تكونَ باطِنَةً، فَكانَ ذلك تَقْوِيَةً لِلْعُمومِ وتأكيدًا لَهُ، وأُريدَ بهذا الطِّباق

تَأكيدُ العُمومِ وتَقْوِيَتُهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 175.

أنَّ النِّعَمَ منها ما يمكنُ ملاحظتُهُ ومنها ما يَعجَزُ الإنسانُ عن إدراكِهِ؛ سواءٌ تعقَّلَه بعدَ جريانِ النِّعمةِ الخفيّة أم لم يَتعقّلهُ أصلًا، وحينها يدركُ الإنسان أنَّ المحنةَ التي هو فيها نعمةٌ في الحقيقة؛ لأنَّها مِحنةٌ ظاهرةٌ، لكنَّها تنطوي على نعمةٍ باطنةٍ بالشُّكرِ وعدمِ الجَزَعِ، بقي أنَّ هذا التّعميمَ يمثّلُ أبلغَ ردٍّ على المشركينَ الَّذين يعتقدونَ أنَّ بعضَ النّعَمِ من آلهتهم المزعومة، فسدّ النّظمُ الحكيم صدورَ أيّةِ نعمةٍ للإنسان من غير اللّه تعالى؛ إذ لا فاعلَ ولا خالقَ ولا منعمَ إلّا اللّهُ ﷻ.

مَعْنى الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

افْـتِراقُ النّـاسِ في تَـعـامُـلِـهِـمْ مَـعَ التّسخيرِ والإسباغِ

(الواوُ) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ عاطفةٌ على مُقدّرٍ محذوفٍ، وذلك أنَّه لمّا كانَ تَقْديرُ قولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ مع كَوْنِ كُلٍّ مِنْكُم أيُّها العبادُ يَعْرِفُ أنَّ ذلكَ التّسخيرَ والإسباغَ نِعْمَةٌ منهُ تَعالى، فَمِنَ النّاسِ مَن أقرَّ بها واسْتَيقَنَ وانْقادَ لِما دَعا إليهِ الكتابُ الحكيمُ فاهْتَدى؛ لمّا كانَ كذلكَ عُطِفَ عليهِ قولُهُ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ للإشارَةِ إلى ما يُقابِلُ الصِّنْفَ الذي طُوِيَ ذِكْرُهُ[1]، وإنَّما حذفَ الموقنين الشّاكرين؛ لأنَّ الغايةَ منَ التّذكيرِ بالتّسخيرِ والإسباغِ للنّعَمِ أنْ يرعويَ المُكذِّبون، فلم يكنْ لذكرهم مدخليَّةٌ في المقصَد.

وَيَجوزُ أن تَكونَ (الواوُ) لِلحالِ، والمَعْنى: قَد رَأيْتُم تَسْخيرَ اللّهِ تَعالى لَكُمْ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ، وأنْعَمَ عَلَيْكم نِعَمًا سابِغةً عامَّة، والحالُ أنَّ بَعْضَكُم يُجادِلُ في وحْدانيَّةِ اللّه ويَتَعامى عَن أدِلَّة وحْدانيَّته ويتغافَلُ عَنْها.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 185.

وفي الواوِ احْتِمالٌ آخرُ؛ وهو كونُها اعْتِراضيَّةً، والجملَةُ بَعْدَها واقِعَةٌ على سبيلِ الاعْتِراضِ بينَ قَوْلِه: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾ وبَيْنَ قولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[1].

مَعْنى (مِنْ) في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

ذِكْرُ أساليبِ التَّلْبيسِ والتَّدْليسِ في مواجَهَةِ الحَقِّ

(مِنْ) في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حرفُ جَرٍّ دالٌّ على التَّبعيضِ، والمُرادُ بهذا الفَريقِ مِنَ النّاسِ المُتَصَدّون لمُجادَلَةِ النَّبيِّ ﷺ بالباطِلِ والتَّمويهِ تَلْبيسًا وتَدْليسًا[2].

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

لَيْسَ الجِدالُ واقِعًا مِنَ الجَميعِ

(أل) في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ مِن قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ دالَّةٌ عَلى الاستغراقِ والعمومِ، فهي شامِلَةٌ لِكُلِّ أفْرادِها المُنْدَرِجَةِ تَحْتَها، ولِذا لَمّا لَم يَكُنِ الجِدالُ واقِعًا مِن جَميعِهِم؛ جيءَ بِحَرْفِ التَّبعيضِ (مِنْ) قَبْلَهُ، وفي ذلك إرشادٌ قرآنيٌّ عظيمٌ لعدمِ التّعميمِ بهلاكِ النّاسِ جميعِهِم؛ إذ يبقى الخيرُ فيهم ما بَقِيَتِ السَّمواتُ والأرضُ، بل نفهمُ مِنَ التّبعيضِ معنى القلّةِ؛ لأنَّ البقيّةَ الكثرةَ أتباعٌ لأولئك المُجادلينَ القلّة.

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

الاضْطِرابُ يورِثُ الِانْحِرافَ في الِاعْتِقادِ والعَمَلِ

في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إظهارٌ في مَوْضِعِ الإضْمارِ، وذلكَ لأنَّه تقدَّم هذا الموضعَ قولُهُ سُبْحانَهُ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾، فكانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (وَمِنْكُم مَن يُجادِلُ)، ولكن عُدِلَ عن ذلكَ إلى الإظْهارِ؛ للإشارَةِ إلى مَعْنًى يَدُلُّ عليهِ لَفْظُ ﴿ٱلنَّاسِ﴾؛ وهو أنَّهم أهلُ نَوْسٍ، أي: اضْطِرابٍ[3]، وهذا الاضطرابُ هو الذي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 175.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 175.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 185.

أورَثَهُم ضَلالًا في الاعْتِقادِ وانْحِرافًا في العَمَلِ، كما أنَّ الإظهارَ دالٌّ على الغَيبة، وتغييبُهم دليلُ احتقارِهم وامتهانِ ما هُم عليه من جدالٍ وخصومةٍ في اللّهِ وآياتِهِ، ونجدُ في لفظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ تعجيبًا من صُدورِ المُجادلةِ من هذا الجنسِ المزوَّد بالعقلِ والحكمة، فكيف يكونُ منَ النّاس وهو يجادلُ في اللّه بغير علمٍ، ولا يُلاحظُ تلك النِّعَم.

نُكْتَةُ تَقْديمِ شِبْهِ الجُمْلَةِ (مِنَ النّاسِ):

قُبْحُ الجِدالِ في الحَقِّ بالباطِلِ

في تقديمِ شبهِ الجملةِ (مِنَ النّاسِ) الواقعِ خبرًا مقدَّمًا مِنْ قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على المُبتدأ وهو الاسمُ الموصول، تَشْويقُ السّامع إلى الاسْتِعلام عَنِ المسنَدِ إليهِ، فإذا ذُكِرَت قبائحُهم وقَعَتْ على نفسٍ مُسْتَشْرِفَةٍ لِلمَعْرفةِ، فيتمكَّنُ مِنْها غايةَ التَّمكُّنِ، وليس في هذا التَّقديمِ إفادةُ التَّخصيص.

وفي تقديمِ شبه الجملةِ أيضًا إشعارٌ بأنَّ فاعلَ ما سيُذكَرُ بعدُ هو من النّاسِ؛ لئلّا يُظَنَّ أنَّهُ مِنْ جنسٍ آخرَ؛ وذلك لقُبْحِ الفِعْلِ المذكورِ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالمُجادَلَةِ مادَّةً وصيغَةً:

العِنادُ والاسْتِكْبارُ في مواجَهَةِ الحَقِّ

في التَّعْبير بالمُجادَلَةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ دِلالَةٌ على شِدَّةِ عِناد هَؤُلاءِ وقوَّةِ اسْتِكْبارِهم عَنِ الانْقيادِ إلى الحقِّ، وذلكَ لأنَّ المُجادلَة هيَ شدَّةُ الخُصومَةِ مَعَ اسْتِمْرار مُراجعَةِ الكَلام.

وفي لَفْظِ ﴿يُجَٰدِلُ﴾ اسْتِعارةٌ تصريحيَّة تَبَعيَّة؛ وذلك لأنَّ أصلَ الجَدلِ إبْرامُ الحَبْلِ وإحكامُه، والمُجادلُ يُحاولُ إحكامَ شُبْهَته لِتَروقَ وتَروجَ عندَ سامِعيها، وفي ذلك دلالةٌ على شِدَّة تَمَسُّكهم بِما هُم عليهِ مِنَ الباطلِ، وبُعْدٍ عَمّا تَقْتَضيهِ الحِكْمَة[1].

ويُقَوّي هذه الدِّلالةَ التَّعبيرُ عَنِ المُجادلَةِ بالفِعْلِ المُضارع

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغية: 2/ 376.

﴿يُجَٰدِلُ﴾، وهو دالٌّ على استمرارِهم عَلى الجِدال كُلَّما ظهَرَ حقٌّ وبدَتْ أدِلَّتُه.

دِلالَةُ الإيجازِ في قَوْلِهِ: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾:

إنْكارُ المُشْركينَ شُمولَ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى لِلبَعْثِ

في قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إيجازٌ بِالحَذْفِ، والتَّقْديرُ: ومِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ في وجودِ اللهِ بالنِّسبةِ لِمُنكري التّسخير، وفي تَوْحيدِ اللهِ سُبْحانَهُ وصِفاتِه، بالنِّسبةِ للمُشْرِكين المُنْكِرين وحْدانيَّتَه سُبْحانَه وعُمومَ قُدْرَتِه وشمولَها للبَعْثِ، ولمّا كان الجدالُ مُتعلِّقًا باللهِ تعالى وجودًا ووَحدانيّةً وقعَ الإيجازُ فيهما بدلالةِ ذكرِ (التّسخير والإسباغِ) لكلِّ النِّعَم.

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

تَهْويلُ شَأنِ الجِدالِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

في قول اللهِ ﷻ: ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ إظهارٌ في موضعِ الإضْمارِ؛ إذْ تقدَّم قولُهُ تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾، فكان مُقْتَضى الظّاهِر: ومِنَ النّاس مَنْ يُجادِلُ فيه، ولَكِنْ عُدِلَ عن ذلك إلى الإظهار؛ تهويلًا لأمرِ الجدالِ بغير علم[1]، واستكمالًا لصدورِ التّعجيبِ معَ الإقرار بأنَّه اللهُ؛ إذِ المُقِرُّ بذلك ينبغي أنْ يُقِرَّ بالخلقِ والتّسخير والإسباغِ منه؛ إذ يوحي الاسمُ الجليل بكلِّ صفات الجلالِ والكمالِ، فكيف يكونُ الخلقُ والنِّعَمُ صادرين من غيره تعالى.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿عِلْمٍ﴾ و﴿هُدًى﴾ و﴿كِتَٰبٍ﴾:

خُلُوُّ المُجادِلينَ في اللهِ تَعالى عَنْ مُطْلَقِ العِلْمِ

نُكِّر كلٌّ من ﴿عِلْمٍ﴾ و﴿هُدًى﴾ و﴿كِتَٰبٍ﴾ من قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ للدّلالَةِ عَلى العُموم؛ إذْ هُما واقِعانِ في سياق النَّفي، فأفادَ أنَّهُم يُجادِلونَ في اللهِ تَعالى وفي تَوْحيدِهِ وصِفاتِه بِغَيْرِ أيِّ عِلْمٍ كانَ، ولا ضَرْبٍ من ضُروبِ الهُدى، ولا يمتلكونَ كتابًا يُفنِّدُ ما نزلَ من عندِ اللهِ تعالى.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 93.

فائِدَةُ تَقْيِيدِ المُجادَلَةِ بِالحال ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾:

تَخْقيرُ شَأنِ المُجادِلينَ في اللهِ تَعالى

قُيِّدتِ المُجادلَةُ بِكَوْنِها واقِعةً خاليةً مِنَ العِلْمِ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ إذ شبهُ الجُملةِ في محلِّ النّصبِ حالٌ منَ الضَّميرِ المُستترِ، وفائدتُها بيانُ أنَّ مَن جادلَ في اللّه وآياتِه لا ينفكُّ عنِ الاتّصافِ بالوهمِ الَّذي يتوهّمُه الجاهلُ؛ إذ كلُّ شيءٍ يدلُّ على وجودِهِ ووَحدانيّتِهِ؛ ولبيانِ أنَّ المُجادِلَ وإنْ كانَ قَد يَكونُ فَهِمًا، إلّا أنَّ كلامَهُ مُجَرَّدٌ عَنِ العِلْمِ، بَلْ يَتلفَّظ بألفاظٍ هيَ في ركاكَةِ مَعانيها - لعَدَمِ اسْتِنادِها إلى حِسٍّ ولا عَقْلٍ - مُلْحَقَةٌ بأصواتِ الحيواناتِ العُجْمِ[1]، وإنَّما لم يقل النّظم الكريم: (بجهل)؛ لأنّ الجهلَ معذورٌ فيه المُجادلُ، وأمّا هؤلاءِ المُجادلونَ فإنَّهم يُدركونَ الأدلّةَ ويَرَونَ الآياتِ ويَجحدونَها، فليسوا جهلةً في الحقيقة عندَما تصدَّوا للجدال، بل هم أذكياءُ عارفونَ لكنَّهم جاحدون، ومن ثمَّ أخبرَ عن هيئتِهم عند الجدالِ أنَّها مُلابِسةٌ لحالِ عدمِ العلم، وأمّا هُم في أنفسِهم فإنَّهم عالمون، فيوردونَ الشُّبَه والضَّلالاتِ الوهميَّةَ مُصوّرينَ لها بصورة العلْمِ المزيَّف.

نُكْتَةُ عَطْفِ نَفْيِ الهُدى عَلى نَفْيِ العِلْمِ:

بَيانُ أنْواعِ المُجادِلينَ

نَفَى اللّهُ تعالى عنِ المُجادِلِ فيهِ وفي تَوْحيدِهِ وصِفاتِه العلمَ، ثُمَّ نَفى عنهُ الهُدى، فقالَ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى﴾؛ وذلكَ لأنَّ المُجادِلينَ ضَرْبانِ؛ مُقلِّدونَ ومقلِّدون، فلَمّا ذكرَ اللّهُ تَعالى مَن يُجادِلُ فيهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وهُمُ المقلَّدون مِن أئمَّةِ الكُفْرِ والضَّلال؛ أعْقَبَهُ بِبَيانِ مُجادَلَةِ المُقلِّدِ، وهوَ دون رتبةِ الأوَّلِ، ولذا لم يُسْتَغْنَ بذِكْرِ السّابقِ عَن ذِكْرِ هَذا[2]، ويمكنُ أنْ يكونَ عطفُ النّفي لبيانِ أنَّ المجادل إمّا أنْ يكونَ مُطّلعًا على الأدلّة العلميّة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 186.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 208.

دارسًا لها متأمِّلًا باحثًا عن حقيقتِها، وإمّا أن يكونَ مُمتلكًا للهداية والحكمةِ بالخِلقة والجبلَّة، فهو وإنْ خلا منَ العلم ووسائلِه إلّا أنَّه يمتلكُ دلالةً على الحقِّ وإرشادًا إليه بالفطرة، فسلبَ النّظمُ عن هؤلاء المجادلينَ العلمَ والفطرةَ الصّافيةَ معًا، وفي نفي المصدرين (العلم والهدى) دلالةٌ على سلبِ حقيقةِ العلم والهداية عنهم؛ فكانوا في جدالِهم للحقّ عينَ الجهل والضَّلالة.

فائِدَةُ المُغايَرَةِ بَيْنَ (غَيْرِ) و(لا):

نَفْيُ الهِدايَةِ عَنِ المُجادِلينَ في اللهِ تَعالى بِالكُلّيّةِ

غايَرَ النَّظْمُ الكَريمُ بينَ أداتَي النَّفي (غير) و(لا) في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾؛ لأنَّ (غير) تَدُلُّ على نَفْيِ العِلْمِ عَنِ المُجادِلِ حالَ جِدالِه، وإنْ كانَ في الأصْلِ صاحبَ علم، ولو وقَعَ النَّفْيُ بـ (لا)؛ بأنْ يَرِدَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ: (ومِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ في اللّهِ بِلا عِلْمٍ)؛ لتُوُهِّم أنَّ المذمومَ إنَّما هو الجِدالُ إذا كانَ غيرَ متَّصفٍ صاحبُهُ بالعِلْمِ.

بخِلاف قَوْلِه: ﴿وَلَا هُدًى﴾؛ فوقَعَ النَّفْيُ بـ (لا)؛ لبَيانِ انْتِفاءِ الهِدايَةِ عنهُ بالكُلّيَّة، وذلكَ لأنَّ المَعْنى قَد يَظْهَرُ لِبَعْضِ القاصِرين؛ لجَريانِه على لِسانِ مَن لا يُعْتَبَر، فإذا أُضيفَ إلى مُعظَّم عِنْدهم تَأمَّلوه ولَم يُبادِروا إلى ردِّه؛ لاستعظامِه، فَنَفى اللّهُ تَعالى الهدايَةَ عَنْهُ بالكُلّيَّة لا الهدايةَ حالَ جِدالِه[1].

نُكْتَةُ عَطْفِ ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾:

نَفْيُ جَميعِ ما يَتَعَلَّقُ بِهِ المُخْتَجّونَ بِالباطِلِ

لَمّا نَفى اللّهُ تعالى العِلْمَ عَنِ المُجادِلِ في تَوْحيدِه سُبْحانَهُ، ونَفى عَنْهُ الاهْتِداءَ بِتَقْليدِ غيرِه منَ المُهْتَدينَ من أتْباعِ الرُّسُل أو امتلاكِ الحِكمة والفِطرة النقيَّة، وكانَ القَوْلُ مَقْبولًا إذا أُسندَ إلى اللّهِ تَعالى وإن لَم يَظْهَر وجهُ حِكْمتِه، أو كان ممّا تَحارُ فيهِ العُقول[2]؛ نَفى اللّهُ سُبْحانَهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 186.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 187.

أنْ يكونَ لِهَذا المُجادِلِ أصلٌ يَعْتَمِدُ عليهِ مِن كُتُبِ اللهِ سبحانَهُ؛ ليَقْطَعَ عَنْهُ جميعَ ما يتعلَّق به المُحتجُّ، فقالَ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، وبعبارةٍ أُخرى ليس لهؤلاءِ المُجادلينَ سندٌ نقليٌّ عبَّر عنه بـ(الكتاب المنير)، ولا سندٌ عقليٌّ عبَّر عنهُ بـ(العِلْم)، ولا تقليدٌ أو فطرةٌ نقيّةٌ عبَّر عنهما بـ﴿هُدًى﴾، ومن افتقدَ في جدالِهِ هذه المقوِّماتِ الثّلاثةَ فإنَّ حِواره مجرَّدُ جدالٍ لا بُرهانَ لهُ فيه.

نُكْتَةُ إعادَةِ حَرْفِ النَّفْيِ (لا):

لَيْسَ لِلمُجادِلِ في اللهِ سُبْحانَهُ شَيْءٌ يَتَعَلَّقُ بِهِ

كُرِّر حرفُ النَّفْيِ (لا) في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾؛ لِمَزيدِ العِنايَةِ بِهذا النَّفي، فيكونُ نَفْيُ كُلٍّ واحِدٍ مِنْهُما عَلى سَبيلِ الاسْتِقْلالِ، فلَيْسَ لِهَذا المُجادِلِ في توحيدِ اللهِ تَعالى علمٌ، وليسَتْ لَهُ هِدايةٌ، وليسَ لَهُ كتابٌ مِنْ كُتُبِ اللهِ سُبْحانَهُ يَسْتَنِدُ إليها، بِخِلافِ ما لَو جاءَ البَيانُ القُرْآنيُّ: (ولا هُدًى وكتابٍ منير)؛ لتوُهِّم أنَّ المَنْفيَّ الجمعُ بَيْنَهُما، وأنَّ عندَهُ واحدًا مِنْهُما على سَبيلِ الانْفِرادِ.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿كِتَٰبٍ﴾:

لَيْسَ لِلمُجادِلِ في اللهِ ﷻ مُسْتَنَدٌ مِنْ كِتابٍ مُنَزَّلٍ

نُكِّر لَفْظُ ﴿كِتَٰبٍ﴾ من قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ للدّلالَةِ عَلى العُمومِ؛ لأنَّه واقِعٌ في سياقِ النَّفي، فأفادَ أنَّهُم يُجادِلون في اللهِ تَعالى وفي تَوْحيدِهِ وصِفاتِه من غَيْرِ اسْتِنادٍ إلى أيِّ كِتابٍ مِن كُتُبِ اللهِ تَعالى.

نُكْتَةُ وصْفِ الكِتابِ بِأنَّهُ مُنيرٌ:

تَصْويرُ هِدايَةِ القُرْآنِ الكَريمِ

وُصِفَ الكِتابُ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ - والمرادُ به كتابٌ من كُتُبِ اللهِ سُبْحانَهُ - بكونِهِ منيرًا، وهو وصفٌ كاشفٌ؛ لكونِ هَذا الوَصْفِ لازِمًا لِمَوْصوفِه لا يَنْفَكُّ عنهُ بِحالٍ، والمَعْنى: كتابٌ بيِّنٌ غايَةَ البَيانِ، مُبَيِّنٌ لِغَيْرِهِ الحَقَّ والهُدى[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 187.

وفي وصْفِ الكِتابِ بالإنارَةِ؛ تَشْبيهٌ لهُ بالمِصْباحِ المُضيءِ في اللَّيل؛ بجامعِ بَيان الطَّريقِ في كُلٍّ مِنْهُما والاهتداءِ بهِ، فيكونُ استعارةً مكنيّةً، وإسنادُ الإنارة إليهِ قرينتُها، وفي هذا تصويرٌ بديعٌ.

وفي وصْفِ الكِتاب بالمُنيرِ أيضًا: تعريضٌ بِمَن يُجادِلُ في أمْرِ الإسْلامِ وتَوْحيدِ اللّه تَعالى بالموازَنَةِ بينَ كِتابِ اللّهِ ﷻ المنيرِ وبينَ الأخْبارِ الماضيَةِ المُظْلِمَةِ المَنْقولَةِ عنِ الأُمَمِ الجاهِليَّة[1].

بَلاغَةُ أُسْلوبِ التَّقْسيمِ في الآيَةِ:

التَّنْبيهُ عَلى مَراتِبِ تَحْصيلِ العِلْمِ

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ اسْتيعابٌ لأقسامِ مَراتِبِ تَحْصيلِ العِلْمِ، فَفيهِ أُسْلوبُ التَّقسيم[2]؛ ووجهُ ذلكَ أنَّ مراتِبَ تَحْصيلِ العِلْمِ ثلاثَةٌ؛ إمّا أن تكونَ اجْتِهادا واكْتِسابًا، أو تَلَقّيًا مِن عالِمٍ أو بامتلاكِ فطرةٍ صافيةٍ وجبلَّةٍ نقيَّة، أو مُطالعَةً مِن كِتابٍ سابقٍ[3]، وهي المَذْكورَةُ في الآيةِ عَلى هَذا التَّرْتيب.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المُجادَلَةُ والمُحاجَّةُ والمُحاوَرَةُ:

فـي المُـجـادَلَـةِ اسْـتِـمْـرارٌ وفي المُـحـاجَّـةِ إرادَةُ الـغَـلَـبَـةِ وفي المُـحـاوَرَةِ هُـدوءٌ في المُراجَعَةِ

المُجادلَةُ في أصْلِ اللُّغَةِ تَدُلُّ على شدَّةِ الخُصومَة واسْتِمْرارِ مُراجعةِ الكَلام، بخِلاف المُحاجَّة فإنَّ مَعْناها: المُغالبَةُ بالحُجَّة والبُرْهان، وأمّا المُحاورَةُ فَهيَ مُراجعَةُ الكَلام.

وقَد جاءَ ذِكْرُ المُجادَلَة في القُرآن الكريم كثيرًا، بَل إنَّ سورَةً من سوَرِه سُمّيت بالمُجادلَة، ومِن شَواهِدِ الجِدالِ الواردِ في القرآنِ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 208.

(2) لأسلوب التَّقْسيم معانٍ مختلفةٌ، منها: اسْتيفاءُ أقْسامِ الشَّيء بالذِّكْر، عبد المتعال الصَّعيدي، يُنظر: بغية الإيضاح: 4/ 608.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 175.

وورَدَ النَّهْيُ عَنِ الجِدال إلّا بالتي هيَ أحسَنُ، كَما في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: 46]، والجِدالُ المَنْهيُّ عنهُ هو الذي يَجُرُّ إلى المُغاضبَةِ والمُشاتَمَة، وأمّا مُراجعَةُ الكلامِ بغَرَضِ الإقْناع والوُصول إلى الحَقِّ، فهذا مَنْدوبٌ إليه.

وأمّا المُحاجَّة؛ فقد وردَتْ في القرآنِ الكريم ثلاثَ عَشْرَةَ مرَّةً، منها في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦﴾ [البقرة: 76].

فالمُحاجَّة: مُحاولَةُ كُلِّ واحِدٍ أن يَغْلبَ خَصْمَهُ بِما يُقيمُهُ مِن بَراهينَ وحُجَجٍ، بقَصْدِ إقامَةِ الحَقِّ وبيانهِ ونُصْرَته.

وأمّا المُحاوَرَةُ؛ فَقد ذُكِرَت في القرآنِ ثلاثَ مَرّات، منها في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧﴾ [الكهف: 37].

وحقيقَتُها: مُراجعَةُ الكَلام، وهيَ تَخْلو مِنَ الشِّدَّةِ التي في المُجادَلَة.

والحاصِلُ أنَّ المُجادَلَة والمُحاجَّة والمحاورَةَ تَجْتَمِعُ في مراجعَةِ الكلام، وتَنْفَرِدُ المُجادلَةُ بدِلالَتِها على الشِّدَّة والاسْتِمْرار، وأمّا المُحاجَّةُ فَهيَ مُصاحبَةُ الكلامِ لِلحُجَجِ التي يُراد بِها الغلَبَةُ عَلى الخَصْمِ، وأمّا المُحاورةُ ففيها هدوءٌ في مراجعَةِ الكلامِ[1].

(1) داود، معجم الفروق، ص: 178 - 181.

المحتويات

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والأربعون،
سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 43 ، 816 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-94-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 43 : المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-94-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9381682 بتاريخ 2024/12/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»